اللـــقـــــاء

كنت في عامي الثالث والعشرين على منحة دكتوراه في ألمانيا أنعم بخير ما يمكن لشاب أن ينعم به من نجاح ونشاط إذا عاش في محيط يلهم ويشجع ويكافئ. وكنت قد أتيت قبل ذلك بعامين من مصر إلى ثقافة مختلفة، ولكني لم أعاني، كما يحدث كثيراً للمغتربين عن أوطانهم، من أي صدمة ثقافية، بل أكاد أقول إن الأمر كان على العكس من ذلك تماماً. سكنت كغيري من الطلاب في منزل شاء حسن حظي أن يكون لسيدة متقدمة في السن على قدر كبير من الثقافة. عندما لاحظت هذه السيدة افتناني بالموسيقى الكلاسيكية، شجعتني على تعلم البيانو، وَعَرَّفتني بمؤلف وملحن ألماني تكفل بتثقيفي في الأدب والفن بالإضافة إلى الموسيقى والبيانو. اهتممت وانشغلت بكل هذه الأشياء إلى جوار دراساتي الأصلية في مجال الهندسة. كانت ألمانيا المكان الأمثل لإطفاء تعطشي للتعلم، فقد أتاحت لي أن أزور المتاحف والكاتدرائيات العظيمة مع مضيفتي، وأن أذهب إلى حفلات موسيقية، وأتجول في الغابة السوداء غير بعيد من مقر دراستي، وأقوم برحلات إلى البلاد الأوروبية المجاورة... كل ذلك جعلني أشعر كما لو كنت قد بدأت أعيش حياة مكتملة لأول مرة. وذلك لم يكن كل شيء، فقد أهدتني ألمانيا أكثر من ذلك بكثير...

كنت قد سعدت في طفولتي برعاية خاصة، فقد ولدت في القاهرة لعائلة اشتهرت بالوطنية والاستقامة. كان الإسلام الذي نشأت فيه سمحاً، واسع الأفق، وتقدمياً. حارب جدي وأخوته ضد الاستعمار الإنجليزي، فنُفي أحد الإخوة مع سعد زغلول إلى جزر سيشل، وسجن آخر في الصعيد، ولكن ذلك لم يمنع أخاً ثالثاً من الزواج بسيدة إنجليزية، ولم يمنع العائلة من إرسال بناتها إلى مدارس أمريكية وأوروبية في الصعيد وفي القاهرة لتعلم لغات أجنبية، في حين كان الأولاد يرسلون إلى مدارس قومية لكي لا يفقدوا الاتصال بوطنهم.

لم أعرف أبي وأمي إلا بالكاد: كان أبي محامياً واقتصادياً مشغولاً بأعماله على الدوام ولم يكن يمضي وقتاً كثيراً مع أطفاله، كعادة الكثيرين من رجال جيله. أما أمي فكانت دائمة الشكوى من صعوبة التنفس وتمضي معظم وقتها ملازمة للفراش. بذلك تُرِكت وأخي في رعاية مربية وأشخاص آخرين يقومون بشئون المنزل. وكان أبي قد جمع مكتبة كبيرة في غرفة مكتبه بالمنزل شملت العديد من مجلدات التراث العربي إلى جانب كتب فرنسية وإنجليزية كانت ترسل إليه بانتظام من مكتبات في وسط القاهرة. لا بد إنني كنت في السابعة من عمري عندما بدأت في التسلل إلى هذه الغرفة قليلة الزوار، حيث كنت أقفل الباب من خلفي وأمضي ساعات أنسى نفسي فيها، سائحاً فيما كان سني آنذاك يسمح لي بأن اكتشفه من كنوزها. سرعان ما أصبحت هذه الغرفة بالنسبة لي عالماً سحرياً مليئاً بالمغامرات والبطولة والجمال ألجأ إليه كلما فرغت من المذاكرة واللعب.

ولكن سرعان ما تراكمت الغيوم في سماء طفولتي المشرقة. قامت ثورة 1952 وفقدت عائلتي معظم ممتلكاتها في موجة التأميم التي فرضها النظام الجديد. لم يمض وقت طويل بعدها حتى توفي والدي بنوبة قلبية مفاجئة. بحلول سن المراهقة، اكتمل النفي من جنة الطفولة التي كنت أعيشها. عرفت لأول مرة معنى الكرب والأسى وتملكني نوع من الإحساس المستديم بالذنب جعلني أهيم في الحياة بظهر منحنٍ كما لو كنت أحمل على عاتقي عبئاً ساحقاً. صاحبني في طفولتي شعور بأنني محمول على جناحين وقادر على التحليق إلى جميع الآفاق ولكن ذلك الشعور ولى إلى غير رجعة وأصبحت الحياة تحدياً يحتاج لمواجهته إلى عناء وجَلَد عظيمين. درست في سنين الجامعة بتصميم فولاذي تكريماً لذكرى والدي، الذي كان يعتبر التفوق في الدراسة معيار كل شيء، ولأنني كنت أتوق بشدة إلى الحصول على منحة تسمح لي بالدراسة في الخارج وتتيح لي أن أكتشف العالم الشاسع الذي

كنت قد ألممت بنطف منه في قراءاتي. تحقق رجائي في سن العشرين عندما أنهيت دراستي في هندسة القاهرة وحصلت على منحة للحصول على الدكتوراه من ألمانيا.

كنت أتصفح ذات يوم في كتب مضيفتي الألمانية عندما وقع بصري على كتاب غير ملفت بعنوان "اليوجا المتكاملة" ولم أكن أعرف عن اليوجا آنذاك أكثر من أنها تمارين بدنية نشأت في الهند، وتوقعت أن أجد في الكتاب الصور المعتادة لممارسي يوجا في أوضاع ملتوية ومستحيلة. ولكني لم أجد صوراً، بل وجدت نصوصاً تحتوي جملاً ألمانية صعبة تتخللها كلمات سانسكريتية. كان الكتاب مصنفاً من مؤلفات شري أوروبيندو والأم ولم أكن قد سمعت عنهما من قبل. أعدت الكتاب إلى الرف، فقد كانت اهتماماتي قد توسعت بما فيه الكفاية. لم تكن هناك أي ضرورة لعودتي إلى الكتاب مرة أخرى، ولكني وجدت نفسي أعود إليه في الأيام التالية مرات ومرات، وأصبح مقدراً لهذا الكتاب أن يصبح نقطة تحوُّل في حياتي.

بدت لي نصوص شري أوروبيندو والأم مزيجاً عجيباً من تقارير عن تحقيقات روحية باهرة ومن تمرينات نفسية تؤدي إلى هذه التحقيقات. وجدت هذه النصوص تتحدث عن روحانية سيكولوجية تختلف عن روحانية الغيبيات والتقشف التي كنت قرأت عنها من قبل. لم يكن فيها أي تلهف على إقناع أو وعود بنتائج سريعة المنال. بل كانت النصوص تتحدث عن السلام والسعادة اللذين يأتيان من الانسجام والتوازن ووضع كل شيء في مكانه الصحيح. وجدتها تُعَلِّم أن الروح لا يمكن أن تضل إلى الأبد، بل أنها فقط تتأخر في نموها وتطورها عندما نخطئ. كانت تعلم أنه لو سعى كل إنسان على قدر طاقته وإمكانياته نحو ارتقائه وتطوره، فإن ذلك يكون خير طريق للمساهمة في تقدم العالم من حوله. جذبني شيء آخر إلى الكتاب، ألا وهو تعجبي من الثقة والارتفاع الشاهق اللذين كان شري أوروبيندو والأم يكتبان منهما. كانا يؤكدان إمكانية تحقيق أشياء بدا لي أنها تتخطى طاقة البشر. على الرغم من شكوكي، عزمت على ألا أرفض أقوالهما التي أوحت لي بالصدق والأصالة وألا أصمها بأنها تهاويل أو ادعاءات قبل أن أتحقق من حقيقة الأمر.

ملأت مقالات شري أوروبيندو والأم فجوة بداخلي كانت كل دراساتي واهتماماتي الثقافية السابقة قد عجزت عن ملئها. تعلمت منها أن النمو الحقيقي ينبغي أن يكون نمو الكيان ككل، وأن المعرفة ينبغي ألا تقتصر على معرفة العقل بل أن تشمل أيضا معرفة الروح والقلب. كان الهدف عالياً وبعيداً، ولكن الطريق إليه كان مرسوماً بوضوح، وما كان علي إلا أن أبدأ في السير نحوه.

في الأشهر التالية جرت الأمور على خير ما يرام في حياتي الخارجية، وكانت كلمات شري أوروبيندو والأم تختمر بداخلي... ثم حدث شيء غريب.

كنت قد أنهيت للتو النصف الأول من برنامج الدكتوراه، وكانت الظروف كلها مهيأة للاحتفال، عندما وجدت نفسي فجأة في نوبة اكتئاب من النوع العنيف الذي يجعل المرء يخشى مغادرة الفراش في الصباح ويدور حول نفسه بأفكار انتحارية سائر النهار. لم يفهم أحد ماذا كان يحدث لي، ولم أدرِ أنا نفسي ماذا كان يدور بداخلي.

في لحظة يأس قاتم، تذكرت كتاب اليوجا. نظرت إلى صورة شري أوروبيندو وشعرت في قلبي برعشة خفيفة، ولكنها بينة لا لبس فيها، دخلت بعدها في نوم هادئ، وهو شيءٍ لم أكن قادراً على فعله لمدة خلت. عند استيقاظي في اليوم التالي أيقنت أنني في الطريق إلى الشفاء. ومع أن التحسن كان بطيئاً ومتردداً في البدء، تمكنت في ظرف أسابيع من التغلب على الكآبة ومن العودة إلى حياتي العادية.

كانت تلك الحادثة بداية رحلة طويلة متعرجة ومليئة بالمفاجآت. استمر الهدم والبناء بداخلي لسنوات وسنوات غَيَّرَت فيها إقامتي من بلد إلى آخر عدة مرات وعرفت فيها أناساً ومواقف لم أكن احتسب أن أعرفها أو أصادفها في يوم من الأيام. لم يكن دائماً من السهل التوفيق بين التزاماتي السابقة وبين تطلعي لوهب نفسي لاتجاه جديد وهدف بعيد. كانت الفجوة بين المثل الأعلى والواقع ما تزال شاسعة وكانت مقاومتي الداخلية تضع عقبات في الطريق. أما أصعب الأمور إطلاقاً فقد كان عجزي عن توضيح ما كان يدور بداخلي للذين كانوا قد ارتبطوا بي عن قرب والذين كانت خطواتي تؤثر في حياتهم بالضرورة.

شيئاً فشيئاً بدأت قطع لغز الحياة الكبير تقع الواحدة تلو الأخرى في مكانها الصحيح. أدهشني أن أجد نفسي، على الرغم من كل المتاهات التي سلكتها، قد انتهيت تماماً حيث كنت دائماً أتمنى أن أكون. ازددت عجباً عندما اكتشفت أن كل مرحلة من الرحلة الطويلة، على الرغم من كل مسالكها الملتفة، كانت إعداداً ضرورياً للمرحلة التالية. بدأت أرى كيف قادتني الهداية الإلهية برغم كل الأخطاء إلى المكان الذي كان مقدراً لي منذ البداية. بالتدريج قَلَّت الحاجة إلى الجهد والعناء، وفقد الانفصام بين التوق بداخل النفس والسعي في العالم حدته، وتساقطت المخاوف ودواعي القلق التي أقضت مضجعي طيلة عمري، وأصبحت الحياة سهلة ووادعة، واستقرت السكينة والبهجة والحب الإلهي في نفسيتي، وبدأت أخيراً في إدراك بعض ما كان شري أوروبيندو يرمي إليه عندما كتب رائعته "الحياة الإلهية"...

أقترب، إذ أكتب هذه الأسطر، من سن السبعين، ويسعدني أن أستطيع أن أقول إن النفي من الجنة الذي خبرته في طفولتي قبل ستين عاماً، لم يكن، في نهاية المطاف، نفياً نهائياً.

زكريا مرسي
مارس 2012